–الاغتراب في الشعر الجاهلي: – مقاربة أنتروبولوجية –

د.بن علي قريش
كلية الاداب و اللغات و الفنون
جامعة سيدي بلعباس

احتلت ظاهرة الاغتراب مكانة هامة عند بعض الفلاسفة و المفكرين العرب ، و أولاها الفلاسفة و المفكرون الغربيون مكانة جوهرية باعتبارها ((ظاهرة معاصرة بصورة واضحة [وهي] الآن أكثر تطرفا بصفة عامة وأنه اغتراب شامل)) [1] ، ومع ذلك، يمكن العثور على بواكير الاغتراب في الماضي لأن "الإنسان منذ بدأ يضرب في الأرض قد حمل بين جوانحه ضروبا من الإحساس بالاغتراب حتى لقد تلونت قطاعات عريضة من أدبه، بهذا الإحساس)) [2]، و الاغتراب ، في أبسط تعار يفيه ((... نمط من التجربة يعيش فيها الإنسان نفسه كغريب ... ، أنه لم يعد يعيش نفسه كمركز لعالمه و كخالق لأفعاله)) [3] ويكشف لنا الشاعر الجاهلي في مطالع قصائده عن إحساسه بفجيعة الاغتراب، حين يقف على الأطلال الدراسة، والمنازل الدائرة التي تركها أهلها، إلى مكان آخر، يتوفر فيه الكلأ، والماء، لأن حياة الإنسان في الجاهلية، كانت رحلة لا تهدأ، بحثا عن الكلأ والماء، وتتبع مساقط الغيث، أنى وجدها [4] ، وقد أبان الشاعر الجاهلي عن هذه الحياة، ولم يكن ذلك أمرا غريبا، فالشعر الجاهلي "شعر ممتزج بقدر الإنسان ومصيره، وبأيامه وأشيائه الأليفة...." [5] فالشاعر الجاهلي ، ينتابه الشعور بالاغتراب، حين يواجه الدهر أو الزمن الذي يغيب الأهل أو القبيلة أو الحبيبة، والدهر قوة جارفة "لا يمكن مقاومتها، فهو [الشاعر الجاهلي] يبكي ويستبكي، ويعبر عن شعور بالاكتئاب، حين

يقف على الأطلال الدارسة والمنازل الدائرة، التي رحل عنها أهلها إلى مكان آخر من أرض الجزيرة العربية، بحثا عن الكلأ، والماء، وتتبع مساقط الغيث، أنى وجدها .

فالشاعر الجاهلي، حين يعبر عن إحساسه بالاغتراب، فهو يعبر عن هذه الفاجعة التي يحدثها الزمن أو الدهر الذي يغيب الحبيبة أو الأهل أو القبيلة. فالدهر قوة "...تأخذ كل شيء، أمام هذه القوة، يحس الشاعر أنه عاجز ولا حيلة له، إنها ليست قوة الموت، بل قوة الحركة الأفقية التي تندرج في تيارها ظاهرة الاغتراب..." [6] ، و "غياب الحبيبة والأهل...ليست ظاهرة عابرة، إنها نمط الحياة".[7] ولذلك أصبحت هذه الظاهرة صورة متكررة في حياة الشاعر الجاهلي، وترتسم بوضوح، في المقدمات الطللية، لتعبر عن ارتباطه الحميم بالحبيبة، وبالأهل، وبالقبيلة.

و غياب هؤلاء جميعا عنه و بصفة خاصة الحبيبة يجعله أكثر إحساسا بالاغتراب و لعل دلك هو الذي جعل كثيرا من الشعراء الجاهليين يلجئون إلى ذكر الحبيبة قبل غيرها في مطالع قصائدهم.

ففي معلقة امرئ القيس (قفا نبك)، يعبر الشاعر عن هذا الإحساس. إذ تبرز صورة الحبيبة في مطلع المعلقة، وتتملك الشاعر الوحشة واللوعة والأسى، فيقول:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحوصل

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمال

ترى بعر الآرام في عرصاتها وقيعانها كأنه حب فلفل[8]

ففي هذه الأبيات، نلاحظ أن الشاعر، أصبح عاجزا عن رد الحبيب الغادي، ولم يجد عزاءا لذلك الغياب إلا الوقوف على هذه المنزلة التي سكنتها الحبيبة، فأصبحت أثرا بعد عين.

وفي أبيات أخرى للشاعر امرئ القيس، يتضخم إحساسه بالاغتراب، وهو يقف على قبر أميرة من بنات الروم في سفح جبل، يقال له، عسيب، فيصبح الاغتراب إحساسا بالضياع، فيقول، مخاطبا روح هذه الأميرة :

أجارتنا إن المزار قريب وإني مقيم ما أقام عسيب

أجارتنا إنا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيب (9)

وليس هذا الإحساس بالضياع، الذي عبر عنه امرؤ القيس في الأبيات السابقة، في الحقيقة، إلا شكلا من أشكال الإحساس بالأنس، بالقرب من قبر الأميرة، فهما غريبان، هي غريبة عن الدنيا بما فيها من أهل، وجاه، وملك مفقود، وهو غريب عن أرض الجزيرة العربية بل إن هذا الترحل في حد ذاته، يولد في نفس الشاعر مشاعر الضياع، والاغتراب، ولم يكن ذلك أمرا غريبا، لأن الشاعر الجاهلي "كان يعيش في جدل مع الطبيعة المتموجة كالرمل، ومع الدهر القاهر، ومع الغياب الدائم" (10).

ويبدو أن هذا الغياب الدائم، كان يجعل الشاعر، يعيش في اغتراب دائم، لأن الاغتراب، في هذه الحالة، يصبح معادلا موضوعيا للجدب والعقم والعدم[1]، وقد يكون هذا الغياب –أيضا– شكلا من أشكال رفض الشاعر لهذا الوجود الذي يعني الجدب، والعقم، والعدم، من خلال ظاهرة الاغتراب، ولكن الشاعر كان، في الوقت نفسه، لا يحس بوجوده إلا لحظة يرفض هذا الوجود(11).

وعلى العموم، فإن الشاعر الجاهلي كان يعيش في جدل مع هذا الوجود كما كان يعيش في جدل مع الطبيعة.

ويستحضر الشاعر لبيد بن ربيعة في معلقته (عفت الديار) صورة تلك الديار التي سكنتها حبيبته (نوار)، فأصبحت موحشة إلا من هذه الحيوانات التي تسكنها.

وتجسد هذه الصورة نفسية الشاعر الجاهلي المغترب الذي استيأس، وفقد الأمل في لقاء المحبوب.

ولذلك، ابتدأ لبيد بن ربيعة معلقته، (عفت الديار)، في قوله:

عفت الديار محلها فمقامها بمنى تأبد غولها فرجامها[12] .

وتوحي دلالة جملة (عفت الديار) بعجز الشاعر على مواجهة هذا العفاء، الذي ترك في نفسه شعورا بالاغتراب، عميقا، ويبرر الشاعر ذلك من خلال هذه الأبيات التي تبين ارتباط ظاهرة الاغتراب عند الشاعر الجاهلي بالحبيبة، في المقام الأول، فيقول:

ومن تجرم بعد عهد أنيسها حجج خلون، حلالها وحرامها

فعلا فروع الأبهقان وأطفلت يا لجهلتين ظباؤها ونعامها

بل ما تذكر من نوار، وقد نأت وتقطعت أسبابها ورمامها[13].

فقد تقطعت السبل بين الشاعر لبيد، ونوار، كما لاحظنا ذلك في الأبيات السابقة، فأصبح، لا مناص للشاعر، للتخفيف من هذا الإحساس باليأس، والاغتراب إلا البقاء، متصلا مع ماضيه السعيد مع نوار، وهذا ما نلاحظه –أيضا– مع الشاعر النابغة الذبياني في معلقته (يا دار مية). إذ وقف الشاعر، يسأل (مية) من خلال الدار التي سكنتها مية، فأصبحت خالية بعد أنس، ومقفرة بعد أن كانت عامرة، وخيم عليها الصمت، بعد أن كانت تعج بالحركة، والحياة، فقال:

يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد

وقفت فيها أصيلا كي أسائلها عيت جوابا وما للربع من أحد

أضحت خلاء وأضحى أهلها احتملوا أخنى عليها الذي أخنى على لبد[14].

فصورة الشاعر الجاهلي المغترب في هذه الأبيات، وفي الشعر الجاهلي، بصفة عامة، يتحكم فيها مشهدان رئيسان، هما:

1 -الغياب الدائم للحبيب (نوار، عند لبيد بن ربيعة، ومية، عند النابغة الذبياني).

2 -الإحساس بالفجيعة، والحسرة، والعجز، والاغتراب، من خلال صورة الديار الدارسة.

والشاعر الجاهلي، يدرك أن الكآبة المريرة التي ولدها الاغتراب في نفسه، كانت حتما عليه، لأن الأمل في عودة الحبيب كان أملا ضائعا.

وهذا الإحساس بهذه الحتمية، يعمق –أيضا– إحساسه بالاغتراب، ويجعله، لا يجد وسيلة هامة أخرى، إلا البحث عن آثار الديار الدارسة، يبكيها ويستبكيها، لعله يقهر هذا الاغتراب، ويسعى إلى قهر الزمن، الذي غيب الحبيبة "والزمن عدو الشاعر الجاهلي بعامة، وعدو العاشق بخاصة"[15]، يأسره الليل، والنهار، "في الليل يأسره النهار، وفي النهار يحن إلى وسادة الحبيبة"[16]، ولذلك، فقد ظلت عبلة حاضرة في وجدان الشاعر عنترة العبسى، حتى وقت إحساسه بالاغتراب العرقي أو العنصري، فقد تنكرت له قبيلته عبس، بدءا بأبيه، بسبب سواد لونه، فذاق مرارة الإحساس بالضياع، والاغتراب، وعبر عن هذا الإحساس، في كثير من شعره، كما في قوله، مخاطبا أباه وقبيلته:

المال مالكم والعبد عبدكم فهل عذابك عنى اليوم مصروف[17]

وليس غريبا أن يتوهج إحساس عنترة بالاغتراب العرقي، فقد عاش في مجتمع، تتحكم فيه القيم القبلية، التي تصنف الناس، بين بيض، وأسود، وشريف، ووضيع، وهذا ما يشير إليه قول عنترة:

يعيبون لوني بالسواد جهالة ولولا سواد الليل ما طلع الفجر[18].

ومن هنا،فقد حاول عنترة أن يقهر هذا الاغتراب العرقي, باللجوء إلى افتكاك حريته من خلال الافتخار بشجاعته, وتذكير قومه بأنه هو من ابتنى مجدا, فقال في ذلك:

اذكر قومي ظلمهم لي وبغيهم وقلة إنصافي على القرب والبعد

بنيت لهم بالسيف مجدا مشيدا فلما تناهى مجدهم هدموا مجدى[19].

وإذا كان الاغتراب العرقي، يعد أشد أنماط الاغتراب، وقعا في نفس الشاعر، لأن الشاعر، يحس من خلاله، بالمهانة، واللانتماء، فإن عنترة لم يستسلم لهذا الاغتراب، وسعى إلى الانتصار لقيم العدل، والمساواة، حتى استطاع أن ينتزع من أبيه، في آخر المطاف، اعترافه به، فتخلص بذلك من هذه العبودية المقيتة.

ولا شك في أن الشاعر عنترة، قد أحس، وقتئذ، أن انتصاره على التفرقة العرقية هو قهر للاغتراب الذي عاشه، تجربة في الحياة. وعاش الشاعر طرفة بن العبد تجربة أخرى، مريرة[20] مع الاغتراب. إذ أحس بظلم ذوي القربى، وشعر بأن هذا الظلم (أشد من وقع الحسام المهند)، فقال:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة علي من وقع الحسام المهند[21].

وقد دفع هذا الإحساس بالظلم طرفة إلى التمرد على ذويه، لاسترجاع حقوقه، وحقوق أمه (وردة) وهدد أعمامه، وعشيرته، في قوله:

ما تنظرون بحق وردة فيكم صغر البنون ورهط وردة غيب

قد يبعث الأمر العظيم صغيره حتى تظل له الدماء تصبب

والظلم فرق بين حي وائل بكر تساقيها المنايا تغلب

أدوا الحقوق تفر لكم أعراضكم إن الكريم إذا يجرب يغضب [22].

إن الظلم الذي لحق طرفه، وعبر عنه في الأبيات السابقة، لم يكن —فقط– تعبيرا عن ظلم سلبه حقه، وحق أمه، وإنما كان تعبيرا عن تمرد أبداه إزاء القيم، والتقاليد، والأعراف الظالمة التي كانت سائدة في مجتمعه القبلي، وقد حاول أن يصوغ من خلال هذا التمرد، الحياة القبلية صياغة جديدة، تتوافق مع فهمه للحياة، لأن الحياة القبلية، بدت له هشة، فكانت الفروسية، والمرأة والخمر، طريقا إلى الانتصار على هذه الهشاشة، فحين امتطى طرفة فرسه، فقد آثر أن يكون موجودا وجودا كاملا، إذ

"بالفروسية يرفع العالم إلى مستوى الكل أو لا شيء –الانتصار أو الموت"[23]، و"بالحب يرفعه إلى مستوى الفرح الكياني"[24].

إضافة إلى ذلك، فقد كانت الخمرة عنصرا، آخر لهذا السعي إلى الانتصارعلى هشاشة الحياة القبلية، كما لم يكن شرب الخمرة إلا تعبيرا عن رفضه لهذه الحياة التي غربته عن عشيرته، فأصبح يعيش بينهم (كالبعير المعبد)، كما يقول في هذين البيتين:

ومازال تشرابي الخمور ولذتي وبيعي، وإنفاقي طريفي ومتلدى

إلى أن تحامتني العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبد[25].

ولا يخفى ما في البيتين السابقين من إحساس بلوعة الاغتراب عن العشيرة، والقبيلة.

وقد برز هذا الإحساس –أيضا– عند الشعراء الصعاليك، بصفة خاصة، لأنهم استمدوا هذا الإحساس من تجاربهم القاسية من قبائلهم، ومن إحساسهم الحاد بهذه التجارب. وهم مجموعتان: المجموعة الأولى: وهم الشعراء الصعاليك الذين اختاروا أن يعيشوا مغتربين عن قبائلهم، لأنهم عاشوا ظروفا اقتصادية، واجتماعية سيئة، فتمردوا على القبيلة وقيمها[26]، التي كانت تعد عامل وحدة بين القبيلة الواحدة، والمجموعة الثانية، و"هو الخلعاء والشذاذ [الذين] تخلت قبائلهم عنهم، وسحبت منهم [الجنسية القبلية]، فكان من الطبيعي أن يفقدوا إيمانهم بكل معاني القبيلة، وأن يكفروا بتلك العصبية القبلية التي لم تعدلها قيمة في حياتهم[27].

ولا ريب في أن الأسس الاجتماعية، والاقتصادية التي قام عليها المجتمع القبلي في العصر الجاهلي، قد عززت الشعور بالاغتراب في نفوس الشعراء الصعاليك، سواء كان هذا الاغتراب كرها أو طوعا، ذلك أن الولاء للقبيلة، والالتزام بقيمها، وتقاليدها، كانت معايير مقدسة، يحرص أفراد القبيلة على احترامها، وكانت القبيلة تحرص على بقاء دمها، نقيا، ولذلك لم تعترف بأبنائها من الإماء[2]،

فشعر هؤلاء الشعراء الصعاليك، جراء ذلك بالحاجة إلى من يحميهم، ويدفع عنهم مظالم المجتمع القبلي، فوجدوا في الصحراء الفسيحة، ملاذا أثيرا لهم، لأنهم افتقدوا إلى هذا التوافق الاجتماعي، الذي يجعلهم يعيشون في انسجام مع قبائلهم، "وظاهرة التوافق، هي الظاهرة التي يقرر علماء الاجتماع أنها الأساس، الذي تقوم عليه الصلة بين الفرد.

الهوامش :

1- ريتشارد شانت ، الاغتراب،ترجمة كامل يوسف حسن ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، الطبعة الأولي،بيروت،لبنان،1980م،ص15.

2- حسن محمد حسن جماد، الاغتراب عند ابريك فروم،المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، الطبعةالأولي،1995م،بيروت،لبنان،ص37.

3- ماهر حسين فهمي،الحنين و الغربة في الشعر العربي معهد البحث و الدراسات العربية،1970م،ص70.

4-- أنظر، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت276هـ)، الشعر والشعراء، تحقيق مصطفى أفندي السقا، القاهرة، مطبعة المعارف، 1932، ص14.

5--أدونيس، مقدمة للشعر العربي، دار العودة، الطبعة الثالثة، بيروت، لبنان، 1979م، ص32.

6- المرجع نفسه و الصفحة نفسها.

7- المرجع نفسه و الصفحة نفسها.

8_ -ديوان امرئ القيس، تحقيق أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، 1963، ص61-62.

9- المصدر نفسه،357.

10--أدونيس، مقدمة الشعر العربي، ص29.

11- - المرجع نفسه و الصفحة نفسها.

12-المرجع نفسه و الصفحة نفسها.

13-نقلا عن الخطيب التبريزي، شرح القصائد العشر، تحقيق، فخر الدين قناوة، ط1، المكتبة العربية، د.ت.ص195.

14-المصدر نفسه و الصفحة نفسها.

15- ديوان النابغة، تح: كرم البستاني، بيروت، لبنان، 1953م، ص36-37.

16-أدونيس، مقدمة للشعر العربي، ص22.

17- ديوان عنترة، تحقيق: عبد المنعم عبد الرؤوف شلبي، المكتبة التجارية، د.ت.ص 109.

18- المصدر نفسه،ص89.

19--ديوان عنترة، ص62.

20-ديوان طرفة، شرح، الأعلم الشنتمري، تحقيق: درية الخطيب ولطفي السقال، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، د.ت، ص10.

21-ديوان طرفة،ص ص 107-108.

22-أدونيس، مقدمة للشعر العربي، ص 19.

23-المرجع نفسه و الصفحة نفسها.

24-الديوان، ص31، والمقصود بـ: طريفي ومتلدى: المال الذي ورثه عن أبيه، وذاك المستحدث.

25- أنظر، يوسف خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار المعارف، مصر، الطبعة الرابعة، د.ت.ص 134.

26- المرجع نفسه ص ص 116-117.

27- المرجع نفسه ص ص 104-105.

المصادر و المراجع :

أولا: المصادر

1- امرؤ القيس،الديوان،تحقيق،أبي الفضل ابراهيم،دار المعارف بمصر،1963م.

2-الخطيب التبريزي،شرح القصائد العشر،تحقيق فخر الدين قناوة، الطبعة الاولي،المكتبة العربية.

3-طرفة بن العبد،الديوان،شرح الأعلم الشنتري،تحقيق ذرية الخطيب و لطفي سقال،مطبوعات اللغة العربية ،دمشق.

4-مسلم بن قتيبة،الشعر و الشعراء،تحقيق مصطفي أفندي السقا،مطبعة المعابد،1932م.

5- ريتشارد شاخت، الاغتراب ، ترجمة،كامل يوسف حسن ،المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، الطبعة الأولي ، بيروت ،لبنان،1980م.

6- عنترة بن شداد، الديوان،تحقيق،عبد المنعم الرؤوف شلبي، المكتبة التجارية،د.ت.

ثانيا:المراجع

1- أدونيس،المقدمة للشعر العربي،دار العودة،الطبعة الثالثة،بيروت،لبنان.

2-حسن محمح حسن حماد،الاغتراب عند ابريك فروم،المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، الطبعة الأولي ،1995م بيروت لبنان.

3-ماهر حسين فهمي، الحنين و الغربة في الشعر العربي ، معهد البحوث و الدراسات العربية،1970م.

4- يوسف خليق،الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، دار المعارف ، مصر ، الطبعة الرابعة ، د ت.